محاضرات في علوم القرآن

المحاضرة الثانية

نزول القرآن

1 - كيفية نزوله:

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما: " عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ρ، أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ρ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ, فَكَانَ يَخْلُو بِغَارٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ ــ وَهُوَ التَّعَبُّدُ ــ بِاللَّيَالِي أُولاتِ الْعَدَدِ, قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ فَيَتَزَوَّدَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ, فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا, حَتَّى فَجَأَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءَ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي, فَغَطَّنِي, حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي, فَغَطَّنِي, حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي, فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ, حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي, فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ, حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: [اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ∃ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ∃ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ∃ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ∃ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ]. [القلم:1 ــ 5] ، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ρ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ, حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوهُ, حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، قَالَ لِخَدِيجَةَ: أَيْ خَدِيجَةُ, مَالِي ؟ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، فَقَالَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَلَّا, أَبْشِرْ, وَاللَّهِ لا يَخْزُنُكَ اللَّهُ أَبَدًا، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَءًا تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ, وَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيْ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ρ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ρ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ ؟ فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ

يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إلا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ, وَفَتَرَ الْوَحْيُ"[1].

• كيف كان يتلقى رسول الله ρ الوحي من جبريل υ:

روى البخاري ومسلم أيضا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما, أنه قال في قوله تَعَالَى: [لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ] [القيامة: 16]. قال:" كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ρ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ ـ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ρ، وَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهُمَا، فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ ـ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: [لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ] [القيامة: 16 ــ 17] قَالَ: جَمْعُهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ, وَتَقْرَأَهُ: [فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ] [القيامة: 18] قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ: [ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ] [القيامة: 19], ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ρ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ, فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ρ كَمَا قَرَأَهُ "[2].

• أول ما نزل على رسول الله ρ من القرآن:

وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر, قال ابن كثير في تفسيره[3] : " وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان، في ليلة القدر منه، كما قال تعالى: [إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ] [القدر: 1]. وقال: [إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ] [الدخان: 3]، ثم نزل بعدُ مفرّقًا, بحسب الوقائع على رسول الله ρ. هكذا روي من غير وجه، عن ابن عباس، كما قال إسرائيل، عن السّدي، عن محمد بن أبي المجالد عن مِقْسَم، عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود، فقال: وقع في قلبي الشك من قول الله تعالى: [شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ], وقوله: [إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ], وقوله: [إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ], وقد أنزل في شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة، وفي المحرم، وصفر، وشهر ربيع. فقال ابن عباس: إنه أنزل في رمضان، في ليلة القدر, وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيلا في الشهور والأيام. رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه، وهذا لفظه. وفي رواية سعيد بن جُبَيْر،

---

[1] ـ البخاري (حديث 3), ومسلم (حديث 422).
[2] ـ البخاري (حديث 5), ومسلم (حديث 1032).
[3] ـ تفسير ابن كثير, (1/ 502).

عن ابن عباس قال: أنزل القرآن في النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا, فجعل في بيت العِزَّة، ثم أنزل على رسول الله ρ في عشرين سنة لجواب كلام الناس. وفي رواية عكرمة، عن ابن عباس، قال: نزل القرآن في شهر رمضان, في ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة، وكان الله يُحْدثُ لنبيه ما يشاء، ولا يجيء المشركون بمثَل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه، وذلك قوله: [وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نزلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا ∃ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا] [الفرقان: 32 ــ 33] "[1].

وكان النبي ρ أول ما نزل عليه من الوحي في سن الأربعين، وهي سن الكمال والتمام في الأغلب, قال تعالى في موسى ρ: [وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ] [القصص: 14] . " قال مجاهد: يعني النبوة "[2].

- كان الموكل بالوحي من الملائكة الكرام عليهم السلام جبريل υ:

وهو رسول الله من الملائكة, موكل بتبليغ الوحي إلى رسل الله عليهم السلام من بني آدم, قال الله تعالى: [اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ] [الحج: 75]. وقال تعالى: [وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ∃ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ∃ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ∃ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ] [الشعراء: 192 ــ 195].

وجبريل υ من الملائكة المقربين, وصفه الله تعالى بالقوة, والأمانة, والطهارة, والحسن, والمكانة العالية, قال الله تعالى: [إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ∃ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ∃ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى] [النجم: 4 - 6]. قال ابن كثير: " يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله محمد ρ أنه عَلَّمه الذي جاء به إلى الناس [شَدِيدُ الْقُوَى]، وهو جبريل υ كما قال: [إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ∃ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ∃ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ] [التكوير: 19 ــ 21] . وقال هاهنا: [ذُو مِرَّةٍ] أي: ذو قوة. قاله مجاهد، والحسن، وابن زيد. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن. وقال قتادة: ذو خَلْق طويل حسن "[3].

---

[1] ـ تفسير ابن كثير, (1/ 502).
[2] ـ تفسير ابن كثير, (6/ 224).
[3] ـ تفسير ابن كثير, (7/ 444).

● وإذا كان أول ما نزل من القرآن هو ما تقدم من سورة العلق فإن آخر ما نزل:

ما حكاه ابن كثير وغيره, قال: " وقد روي أن هذه الآية آخرُ آية نزلت من القرآن العظيم، فقال ابن لَهِيعة: حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، قال: آخر ما نزل من القرآن كله: [وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ] [البقرة: 281] وعاش النبي ρ بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الاثنين، لليلتين خلتا من ربيع الأول. رواه ابن أبي حاتم "[1].

2- تلقي الصحابة للقرآن الكريم:

تلقى الصحابة رضي الله عنهم تعاليم الدين من النبي ρ, وهو من حظهم ورغبهم في الاهتمام به تقربا إلى الله عز وجل, وعلى رأس ذلك الاشتغال بكتاب الله, فهو أصل الدين ومصدره, روى البخاري ومسلم, من حديث عُثْمَانَ بنِ عَفّانَ τ، عَنِ النَّبِيّ ρ قَالَ: « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ »[2]. وفي رواية قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ρ: « إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَه ».

وكان عُثْمَانُ بنُ عَفّانَ τ من أبرز الحفاظ في زمانه ρ, وكان معه آخرون, قال ρ: « خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ــ فَبَدَأَ بِهِ ــ وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ , وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ , وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ »[3].

وروى الإمام أحمد, وغيره من حديث عبد الله بْنِ مَسْعُودٍ τ، أَنَّهُ قَالَ: « كُنْتُ غُلاَمًا يَافِعًا أَرْعَى غَنَمًا لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ρ، وَأَبُو بَكْرٍ τ، وَقَدْ فَرَّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالاَ: يَا غُلاَمُ، هَلْ عِنْدَكَ مِنْ لَبَنٍ تَسْقِينَا ؟ قُلْتُ: إِنِّي مُؤْتَمَنٌ، وَلَسْتُ سَاقِيَكُمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ρ: هَلْ عِنْدَكَ مِنْ جَذَعَةٍ لَمْ يَنْزُ عَلَيْهَا الْفَحْلُ ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَأَتَيْتُهُمَا بِهَا، فَاعْتَقَلَهَا النَّبِيُّ ρ وَمَسَحَ الضَّرْعَ، وَدَعَا، فَحَفَلَ الضَّرْعُ، ثُمَّ أَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ τ بِصَخْرَةٍ مُنْقَعِرَةٍ، فَاحْتَلَبَ فِيهَا، فَشَرِبَ، وَشَرِبَ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ شَرِبْتُ، ثُمَّ قَالَ لِلضَّرْعِ: اقْلِصْ, فَقَلَصَ، فَأَتَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: عَلِّمْنِي مِنْ هَذَا الْقَوْلِ ؟ قَالَ: إِنَّكَ غُلاَمٌ مُعَلَّمٌ، قَالَ: فَأَخَذْتُ مِنْ فِيهِ سَبْعِينَ سُورَةً، لاَ يُنَازِعُنِي فِيهَا أَحَدٌ »[4].

---

[1] ـ تفسير ابن كثير, (1/ 720).
[2] ـ البخاري (حديث 5027), ومسلم (حديث 5032).
[3] ـ البخاري (حديث 3808), ومسلم (حديث 6488).
[4] ـ مسند أحمد (حديث 4412).

وعنه أيضا قال: قَالَ: « لَقَدْ قَرَأْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ρ بِضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً، وإِنَّ زَيْدَ بن ثَابِتٍ لَهُ ذُؤْبَتَانِ, يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ »[1].

وعَنْ مَسْرُوقٍ, قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ τ: « وَاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ, مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلاَّ أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلاَ أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلاَّ أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ, وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ »[2].

وعَنْ أَنَسٍ τ، قَالَ: « جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ρ أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمْ مِنَ الأَنْصَارِ: أُبَيٌّ, وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَبُو زَيْدٍ, وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ. قُلْتُ لأَنَسٍ: مَنْ أَبُو زَيْدٍ ؟ قَالَ: أَحَدُ عُمُومَتِي »[3].

قال الزرقاني في (مناهل العرفان في علوم القرآن): " ثم إن ما ذكرناه في هذا المقام لا يتجاوز دائرة الصحابة الذين جمعت صدورهم كتاب الله في حياة رسول الله ρ. أما بعد وفاته ρ, فقد أتم حفظ القرآن آلاف مؤلفة من الصحابة, واشتهر بإقراء القرآن من بينهم سبعة: عثمان, وعلي, وأبي بن كعب, وأبو الدرداء, وزيد بن ثابت, وعبد الله بن مسعود, وأبو موسى الأشعري. كلهم جمعوا التنزيل بين حنايا صدورهم وأقرؤوه لكثير غيرهم. جازاهم الله أحسن الجزاء. آمين "[4].

---

[1] ـ مسند أحمد (حديث 3846).
[2] ـ البخاري (حديث 5002).
[3] ـ البخاري (حديث 3810), ومسلم (حديث 6494).
[4] ـ مناهل العرفان في علوم القرآن, محمد عبد العظيم الزرقاني, مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه, الطبعة: الطبعة الثالثة.